وظائف المثل الشعبي في منطقة الأوراس

الأستاذة : سمية فالق

جامعة خنشلة، الجزائر

الملخص:

تحتل الأمثال الشعبية حجما معتبرا من الذاكرة الجماعية على اعتبار أنها من أكثر الأشكال التعبيرية المنطوقة تناولا و تعبيرا عن تجارب الإنسان، والأكثر شيوعا، إذ لا تخلو أية ثقافة منها. فهي من الأشكال التي تتعدد موضوعاتها وتتنوع تبعا لتداولها بين الأفراد، فتستحضرها العقلية الشعبية كلما توفرت الدواعي لذلك، فغدت وسيلة تعليمية تنقل تراكما معرفيا لكل ما له صلة بحياة الإنسان، فعبرت عنه بدقة وإحكام، فكانت مؤونة وزادا يستعين به كلما دعت الضرورة.. تبرز أهمية المثل الشعبي بالنظر إلى دوره أو وظيفته داخل المجتمع، حيث حصر الباحثون وظيفة المثل الشعبي فيما يلي: وظيفة تعليمية، تربوية، أخلاقية، ثقافية، اجتماعية... هذا لأنه ببساطة يعبر عن قضايا الحياة الإنسانية عبر سلسلة أقوال لا تخضع لنظام محدد، بالنظر لتكامل موضوعاتها الكامنة في مختلف المواقف الإنسانية..

Résumé:

Les proverbes populaires sont considérés comme étant des formes expressives orales les plus courantes qui expriment les diverses expériences de l'être humain. Ils font partie des formes dont les sujets différents selon leur usage entre les individus, la mentalité populaire les a inventés selon les besoins, les chercheures l'en prouvés quelque fonctions pour se genre de proverbe come étant un moyen éducatif qui transmet un savoir et une connaissance de tout ce qui se rapporte à la vie de l'homme, et qui a si bien l'exprimer. Ainsi, les proverbes populaires jouent un rôle bien déterminé dans l'avenir de la société, et ils sont bien classés en catégories liés à l'enseignement, L'éducation, la morale, la culture .Vu qu'il ait présente dans les situations de la vie humaine.

مقدّمة:

يعتبر المثل الشعبي من أوسع فنون الأدب الشعبي شيوعا و انتشارا، و أكثرها دورانا على الألسن و رسوخا في الوجدان، ووثوبا إلى الذاكرة عند الحاجة، و قد مكنت المثل الشعبي الخصائص التي يتمتع بها من إيجاز في اللفظ و بساطة في التعبير و بلاغة في المعنى أن يكون سهل التداول بين كافة أفراد المجتمع، فيستنجد به المرء في كل حديث جاد مفيد لدعم رأيه و إقناع خصومه باعتباره العرف الذي اتفق عليه غالبية أفراد المجتمع حتى أصبح بمثابة الضابط الاجتماعي الذي يوجه سلوك الفرد مع نفسه،ومع أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه ثقافيا.

" **فالدور الذي يقوم به المثل أكبر من تحده شروح أو تفصيلات، ذلك أن وظيفة المثل تتعلق بالإنسان في أبسط حالاته و أعقدها، إذ يلتصق بحياة الناس و طرائق سلوكهم في محيط المجتمع أو البيئة كما يلتصق بالإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان، لأنه يتحدث عن مشاكل الإنسان و تناقضات الحياة التي تنعكس على أفعاله خيرها و شرها, على أن المثل, و هو يتحدث عن ذلك، و يقوم بعملية الرصد و التسجيل و النقد و التعدية و غير ذلك من مهام شديدة الالتصاق بالحياة اليومية**"[1]

و هكذا نتبين آن للمثل دورا هاما و أساسيا في الحياة الاجتماعية و الفردية، بل إنه يلتصق بحياة الفرد و بسلوكه اليومي في محيطه الاجتماعي ضمن الإطار الذي يعيش فيه، هذا من ناحية أما من ناحية أخرى، فالمثل ينقل كل ما تحمله الحياة من ثنائيات و من تناقضات أيضا، وفي ذلك تقول **نبيلة ابراهيم:** "**إننا نعيش جزءا من مصائرنا في عالم الأمثال و لعل هذا يفسر لنا استعمالنا الدائم للأمثال على عكس الأنواع الشعبية الأخرى. فالأمثال بالنسبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نود أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا و نحن نذكرها بحَرفيَتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية بل إننا نشعر بارتياح لسماعها و إن لم نعش التجربة التي يلخصها المثل**"[2] . ووصول المثل إلى هذه المرحلة لم يكن من قبيل الصدفة بل قد مر بمراحل حتى وصوله إلى الصياغة النهائية، فلقد بدأ المثل بصياغة

فردية، نطق به أفراد في زمان و مكان معينين و عندما لقي استحسان لدى الجماعة و المستمعين تعرض للتحوير و التهذيب و من ثم وضع في قالبه القانوني بوصفه مثلا شعبيا[3].

" **فإذا كانت العقول الفرادى هي التي صاغت الأمثال فإن جمهرة الشعب هم الذين أذاعوها و روجوها و لهذا السبب ظهر التحوير و التصرف في أساليب الأمثال، على حين لم تكن هذه التحويرات متعمدة فيما يختص بالحكايات الشعبية بل كانت للنسيان أو قصور الذاكرة فإن الأمثال تعرضت للتحويرات المقصودة و التصرف المتعمد**[4]".

إن كل ما سبق يقودنا بالضرورة إلى معرفة دور ووظيفة المثل في حياة الأفراد و المجتمع، و هذا ما سوف نلمسه عند دراسة وظيفة الأمثال الشعبية لمنطقة الأوراس.و التساؤل المطروح: هو هل تأتي الأمثال في ختام التجربة أم في بدايتها حتى يتسنى لها أداء وظيفتها و بفحصنا لها نجد الصيغتين معا، و من ذلك قولهم" **مْنِين ينور اللوز مَا يَحرثْ غِير المَدبّوز**" هذا المثل نجده يحمل تحذيرا للفلاحين، وهو نوع من التجربة و الخبرة نقلها أحدهم. و الأصح أنه كان في نهاية التجربة. لكنه قد تحول بفعل الظروف لينطق به في بداية التجربة لكنه تحول بفعل الظروف لينطق به في بداية التجربة كنوع من التحذير بغية أخذ الحيطة.

و يقودنا ذلك للحديث عن الوظيفة التعليمية للأمثال خاصة و أنها تلتصق بالحياة اليومية و العملية للفرد و من ثم يكون لها دور تعليمي. و قد تساءلت **نبيلة ابراهيم** عن هذه الوظيفة التعليمية فقالت:

" **هل يمكن أن المثل ذا طابع تعليمي و نحن ننطق به في خاتمة تجاربنا ؟ و إذا كان المثل ذا طابع تعليمي فمعنى هذا أن يكون بداية لتجاربنا، و يكون له أثر في صقلها و لكن الذي يحدث غير ذلك، فالتجربة تتم كما يحلو لها و في نهايتها ينطلق لساننا يلخص نتيجتها**[5]". و تضيف " **لعل الطابع التعليمي في المثل يرتفع به إلى مستوى أدبي فني لم يكن ليصل إليه لو أنه كان يهدف إلى غرض تعليمي**

صريح. فالتعبير يعبر عن خاتمة التجربة معناه رجوع بها إلى الوراء حتى بدايتها، أي أننا نعيشها مرة أخرى"[6].

و إذا كان من بين وظائف المثل الوظيفة التعليمية فإن الأمر لا يتوقف عندها فحسب ، بل تتعدى وظائف المثل إلى **وظائف اجتماعية، تربوية، أخلاقية.....الخ** صحيح أن المثل ذو طابع تعليمي كما تقول **نبيلة ابراهيم** لكن التعليم يمثل إحدى وظائف المثل الاجتماعية و ليست الوظيفة الوحيدة له. كما أشار إليه " **عبد العزيز الأهواني**" **كثير جدا من الأمثال لا يشتمل على سلوك أو توجيه أو حكمة و إنما يضطلع بوظيفة أدبية أو بلاغية تقصد إلى أغراض فنية تمتع الحس و ترضي النفس بما تشتمل عليه من تشبيه دقيق أو مفارقة مضحكة أو فن من القول الطريف. ومن هنا تقوم هذه الأمثال بما تقوم به بعض الفنون من التقاط صور طريفة من الحياة لا تهدف من ورائها إلى غير الإمتاع الفني"[7].**

فهذا الذي ذهب إليه "**عبد العزيز الأهواني**" يؤكد على ان أسلوب المثل و طريقة صياغته يؤديان دورا كبيرا في تحديد الوظيفة التي يؤديها ، ولا يقتصر الدور الذي يقوم به المثل في الجانب الأدبي فحسب و إنما يتعداه غلى جوانب ومجالات أخرى لها صلة مباشرة بالحياة التي يعايشها الفرد في تفاعله مع محيطه الاجتماعي و على نطاق واسع.

" **و من هذا الاتجاه يأخذ المثل دورا آخر يظهر فيه أثر التشريع الاجتماعي و لئن أخذ المثل دور الناصح الذي يقول ما ينبغي أن يسود و يشير إلى ما ينبغي أن يزول فإنه قد فرض تبعا لذلك الشروط و أستن اللوائح و القوانين التي تنظم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض من ناحية و بين الناس و ولي أمرهم من ناحية ثانية و بين العبد و ربه من ناحية ثالثة'، و لئن كانت التشريعات القانونية قد اتخذت مصدرا رسميا لتنظيم العلاقات الإنسانية، فإن الأمثال بدورها اتخذت مصدرا لتشريع العادات الشعبية و تشكيلها حسب الاحتياجات الأخلاقية و الاجتماعية"[8].**

و عليه فإن دراسة وظائف الأمثال الشعبية الخاصة بمنطقة الأوراس يعد مثالا تطبيقيا نستطيع من خلاله تسليط الضوء على أهمية الأمثال و دورها في حياة المجتمع ككل.

أ- الوظيفة التعليمية:

أثناء احتكاك الفرد وتفاعله مع بيئته ينتج عن تعامله هذا اكتساب الخبرات و المعلومات والأفكار . ومادام التعلم عملية مهمة في حياة الإنسان فإن أثرها ينعكس مباشرة على ما تتداوله العامة و تتناقله، فيبرز أثر ذلك في العقائد الدينية، و في الأمور الاقتصادية، ويتعداه إلى المسائل الأخلاقية و غيرها...

إن كل تغيير يطرأ على سلوكنا و أفكارنا و خبراتنا إنما هو في حقيقته اكتساب لمجموعة من المعارف و الأفكار، التي يظهر دورها إزاء كل موقف نتعرض له.

فالأمثال الشعبية المتداولة في منطقة الأوراس و الخاصة –مثلا- بالأنواء و الفلاحة معظمها نقل لمجموعة من الأفكار و الخبرات اكتسبها الفلاح من خلال تجربته اليومية و صلته الدائمة بالأرض . فكل معارفه عن التقلبات الجوية و تغيرات الطقس أهلته أن يكون خبيرا بكل ما يتعلق بالأنواء و الفلاحة . و نقلت الأمثال الشعبية ذلك فعدت أمثالا تعليمية يستحضرها الفلاح كلما دعت الحاجة إليها.

ونورد بعض الأمثلة عن ذلك: " **أخطاك يالغارس في مارس"، "أحرث بكري ولا روح تكري"، "أحرث يالحارث و طبب راس المراجع راهو مال التجار مازال ليك راجع"، " إذا تكلم الرعد فالليالي سجوا لغراير و الشواري"، "ينار بوسبع تقليبات"" لا تامن العجوز إذا صلات، و الليالي إذا صحات" ، " عام الجليد احرث و زيد"....**

فالتعلم و التجربة أكسبا الفلاح خبرة عن الفصول، هذه الخبرة يوظفها كل ما حل فصل من الفصول فالرزنامة الشعبية تعرف بوادر حلول الفصول، ومن ثم تربط بين حلوله و بين كل ما يتعلق بالأرض و الماشية. ولا يتوقف الأمر

عند ذلك بل يتعداه إلى الفرد في حد ذاته من حيث استعداده و تعامله مع الفصل، و أثبت نجاعة التجربة الاستخدام المتكرر فيما بعد المثل الشعبي فمثلا الفرد الشعبي يردد:"**لا يكذبالك الكذاب ولا يحسبلك الحساب حتى تنور السدرة والعناب**" فالمعلومات المناخية المقدمة تتعلق بحلول الربيع، فرؤية أزهار السدرة و العناب دليل عند العامة على قدوم فصل الربيع، فيبدؤون بنزع ثيابهم الصوفية و إخراج المواشي للمراعي .

ونضيف مثلا آخر" **العام المسعود نعطيك دلايله فالليل تبات تصب و فالنهار تحمى قوايله**". إن تعامل الفلاح مع سنوات طوال قضاها في خدمة أرضه و ماشيته أكسبه خبرة. فالسنة التي تزدهر فيها الحياة الاقتصادية لها علاماتها و دلائلها. فيعرف الفلاح السنة المزدهرة انطلاقا من فصلي الخريف و الربيع.هذه المعلومات المناخية لا يمكن الحصول عليها إلا من عند عقلية مجربة لها خبرتها في الحياة.

كذلك ما نقله من محاسن و مساوئ الفصول تبعا لاحتكاكه المباشر بها قوله"**إذا رعدت في فورار هي لمطارق لصغار و إذا رعدت في مارس هي الخيل تدرس و إذا رعدت في يبرير هي لمطامر فاه ادير**".ويكتسب الفرد الخبرة كلما تقدم به السن و التجربة، فالسن من العوامل المهمة لتعلم الفرد فقول الحكيم الشعبي" **خود راي لكبير تسلك على خير**"، "**اقعد مع لكبير تسمع من فايدة، واقعد مع الصغير تسمع من رايدة**"،" **اللي فاتك بليلة فاتك بحيلة**".

و من السلوكيات التعليمية التي يرددها الفرد الشعبي ما يتعلق بالصحة و العلاج و هي في حقيقتها قواعد صحية أدركها الفرد بالتجربة و التكرار و من ذلك " **الماكلة المهشوشة ما تنوض المهسوس**"، " **اتغذى و اتمدى ولو دقيقتين, و اتعشى و اتمشى و لو خطوتين**".

أيضا ما يتعلق بالنصيحة و الموعظة والتحذير و يبرز هذا النوع من الأمثال من خلال أسلوب صياغتها فقول الشعبي " **خوذ الطريق المعلومة و لو دايرة**"

" ما دير صبعك فالغار ما تلدغك العقرب" "اللي داخل على الباب ادخل و كون فاهم ما يفسد بينك و بين لحباب غير النسا و الدراهم".

ففي المثل الأخير يقدم درسا استخلصه من تجربته التي يكون قد يكون قد عاشها مع النساء و المال حيث ظهر له أنهما من أهم العوامل التي تفسد العلاقات بين الأفراد فنطق هذا المثل لم يكن أبدا من قبيل الصدفة أو نطق به اعتباطا لان المقياس في هذا النوع من الأمثال هو التجربة ، خاصة و أن تكرار يؤدي إلى تغير في أداء نتيجة الممارسة المستمرة.

و ينطبق الحديث أيضا على ما نقله الحكيم الشعبي من أمثال يرددها عن القول و العقل و الحكمة و من ذلك **"اللي تخدمو طيعوا, و اللي ترهنوا بيعوا" "اللي شاف الموت يقنع بالحمى" "لا تسَرَج حتى تَلْجَم و تعقد عقدة صحيحة".**

إن ما نقله الحكيم الشعبي من سلوكيات تعليمية تؤديه أمثال التبصر بالعواقب و اليقظة و الحذر' فلولا الخبرة و التجربة لما تمكن الفرد من الوصول إلى مرحلة يتمكن من خلالها أخذ الحيطة و الحذر، ومن ثم التبصر بعواقب الأمور كقوله: **" الذيب قال عشر دورات ولا تنقيزة" " ما تسخن النار المهدودة دخانها يعميك" "لمحل مقفول أولا بيعة مشومة"**

إن ما ردده الحكيم الشعبي من أمثال تؤدي دورا أو وظيفة تعليمية إنما هي في حقيقتها أمور اكتسبها الفرد بالتعلم نتيجة احتكاكه المباشر ببيئته خاصة و انه لا يمكن تصور إنسان يقتصر سلوكه على النشاط الفطري فحسب، لأن الطبيعة الإنسانية تفرض على الفرد تعلم سلوكيات جديدة . فينظم أساليب الإنتاج، وكل ما له علاقة بالفلاحة، وتتعدى معارفه إلى تكوين خبرات جديدة بفعل الممارسة الفعلية و التكرار المستمر و هذا ما يؤدي إلى تزود الفرد بمهارات و معارف جديدة ، لأن الخبرة و الأداء و التكرار في القيام أو ممارسة نشاط معين يؤدي بالضرورة إلى تنمية القدرات الفطرية لدى الفرد.

ب- الوظيفة التربوية:

التربية عملية مستمرة بالمعنى الاجتماعي لانتقالها من جيل إلى جيل، إضافة إلى أنها ليست عملية عشوائية أو اعتباطية.

و يعتبر الدور التربوي من الأدوار التي تؤديها الأمثال الشعبية، ويبرز ذلك في العديد منها، فنجد مثلا ما يتصل بالدين و العبادات، كقول الحكيم الشعبي حول الصلاة: "**لا تعزيني في ولدي اللي مات، عزيني في وقت عصر الجمعة اللي فات**" " **خل أمك تموت و صل المغرب لا يفوت**.."و قوله عن الحج" **حجيت سبع حجات و تبت سبع توبات**" و الصورة المناقضة التي نقلها عن الحج قوله "**لعمامة عمامة حاج و الخزرة مازالت فيه**" إنما الغرض منها هو الكشف عن نفسية الناس، فهذه التعبيرات المثلية إنما تنقل انعكاسا لما هو موجود في الحياة من تناقضات .

و إذا انتقلنا من أمثال العبادات إلى أمثال الوفاء و الغدر لدراسة الدور التربوي لهذه الأخيرة, فإن نلمس أن الحكيم الشعبي في نقله لهذه الأمثال ركز على دورها الايجابي في المجتمع.فأمثال الوفاء تؤدي وظيفة تربوية تهدف إلى ضرورة التمسك بالعلاقات الاجتماعية, ولا يتوف الأمر عند ذلك بل يتعداه إلى دورها الأوسع و الأشمل و هو الوفاء للوطن، فلو لاحظنا أمثال الوفاء التي ترددها العامة" **واش دخلك دار عدو قال صديق فيها**.." **وطني وطني كون نجود على فراش قطني**" .

لوجدنا أن صفة الوفاء من السلوكيات التربوية التي تنشأ بين الأفراد .و في المقابل فإن قول الشعبي لأمثال مناقضة للوفاء أي ما يختص بالغدر لتوضيح أن بناء المجتمع يعتمد على الركيزتين: الإيجاب وهو صفة الوفاء ، و السلب و هو صفة الغدر، وكما أن للوفاء دورا تربويا إيجابيا داخل المجتمع فإن للغدر دورا سلبيا ، لأنه مادام الشعبي يردد: " **لا عدو عمر ولا ولى صديق**"، " **العدو ما يرجع صديق و النخالة ما ترجع دقيق**" فإن ذلك يعني تفكك العلاقات الاجتماعية .

و تؤدي أمثال الادخار بدورها وظيفة تربوية كقول الحكيم الشعبي:

" نوصيك يا كاسر الخبز اعمل الكسرة الصغيرة

راه اللي جاك مرهام يرفد الكسرة لكبيرة"

" اللي خبا لقى"..

و ينطبق القول على أمثال القناعة و عدمها فلننظر لهذه المقارنات التي يرددها الشعبي في أمثاله:

"لمعيز خير من الفقر، و البنات خير من لعقر"، "لا خسارة عازمة ولا ربح مطول" ، "مدس المداس حتى يجيك الصباط الجديد"

فالدور الوظيفي لمضمون هذه الأمثال إنما يكمن في الرضا والنصيب من جهة و محاولة تحقيق الأفضل من جهة أخرى، لأنه لولا انتشار قيم القناعة في المجتمع لعمت الفوضى و فسد النظام. لذلك فترديد الشعبي لأمثال تحمل معنى عدم القناعة كقوله:" **اللي فاتوه ايامو ما يطمع في أيام الناس" " اللي ما شبع من القصعة ما يشبع من لحيسها".**

لإدراكه للصورة المناقضة، وطبعا ذلك مخالف للسلوك التربوي وهذا ما تحاول أمثال القناعة الإشارة إليه.

جـ – الوظيفة الأخلاقية:

تتبلور الوظيفة الأخلاقية في العديد من الأمثال الشعبية الاوراسية فنجد ترديد الحكيم الشعبي لأمثال حول العرفان بالجميل ينقل صورا لأسمى معاني الأخلاق كقوله: " **كبر بي و كول سهمي." أطعم الكرش تستحي العين"** و حفظ الجميل في حد ذاته وظيفة أخلاقية ، لأنه ليس كل شخص مؤهل لمثل هذا السلوك. و لولا ذلك لما وجدت حالات لنكران الجميل و التي يعتبرها الفرد من العيوب الأخلاقية المنتشرة في المجتمع كقوله :" **من هو اللي سال عليك يا رغدة نهار العيد" ،**

" يأكلوا في الغلة و يسبوا في الملة" " أولا مزية في خبزة العيد".

و أدرك الحكيم الشعبي بفطرته أن الصبر يبعده عن السأم و الملل فيقوي العزيمة و الإرادة فعبر عن ذلك بقوله:

" يا صاحب كأنك صبار أصبر على ما اطرالك

ارقد على الشوك عريان حتى يطلع نهارك"

فمن العادات الاجتماعية أيضا و التي تؤدي بدورها وظيفة أخلاقية آداب السلوك و اللياقة و التي تمثلها أمثال المعاملة بحكم أن الفرد يتعامل مع الغير في إطار من التبادلات و التعاملات المختلفة فقوله: " **اللسان لحلوا يرضع اللبة**"، " **باللسان تملك إنسان**" ، يهدف من ورائها إلى رصد مدى ضرورة و أهمية آداب السلوك في المعاملات و غيرها.

أما عن العيوب المتفشية في المجتمع كالطمع و البخل و الشح.... فغن الفرد الشعبي يعدها عيوبا أخلاقية و يردد عددا من الأمثال في هذا المضمار نذكر منها: " **الطمع يفسد الطبع**" ،"**الطماع يبات ساري**" ،"**الماء احذاهم و الغب اقضاهم**" ،" **خرجت الصدقة من بيت العميان**" ،" **لو كان فيه زيت أو باين على قصتها**" ،" **اللي قاعد فالدار يعطي كراها**."

إن ذكر الفرد لهذه العيوب إنما الهدف عرضها و محاربتها ومن ثم التخلص منها و هنا يصدق قول **نبيلة إبراهيم** " **وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص في عالم الأخلاق و ليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية**"[9] . و عرض الشعبي لهذه يتم وفق أسلوب معين، يحمل أحيانا صيغة التحذير كقوله:

" لا يعجبك نوار الدفلى في الواد داير الضلايل

لا يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل"

إن المفهوم الشعبي لجوهر الإنسان ومكانته يتحدد وفقا لمقياس الأخلاق. لذلك فنقل الحكيم الشعبي لأمثال تتعلق بذلك يهدف من خلالها إلى توضيح

الجانب الأخلاقي للفرد. كقوله : "**العبد الحركي ادلوا للخير يدل و الخير ديما فعلوا كي اللي خازن لعسل في جلد لغزال إذا ما تكل ينباع**"، "**الطير الحركي يحصل ما يتخبط**"، "**من صابني غابة و الناس حطابة**"...

أما إذا انتقلنا إلى أمثال الجار و الضيف فنجدها أيضا تؤدي دورا أخلاقيا كقوله: "**جارك لقريب خير من خوك لبعيد**"، " **الشاري يشري الجار قبل ما يشري الدار**"، " **اقصد الدار لكبيرة إذا ما تعشيت تبات دفيان**".

ومن العيوب الأخلاقية المتفشية في المجتمع الاوراسي ظاهرة الظلم، فهذا الأخير في نظره مساس بالأخلاق لأنه يعمل على تفكيك الروابط و انعدام الثقة بين الأفراد، و بالتالي التخلي عن القيم و المبادئ التي حث عليها الإسلام و التي زرعت بالفطرة في نفوس الأفراد كقوله :

" **راح الزمان و ناسوا جاء الزمان بفاسوا**

اللي تكلم بالحق أو ليك كسر راسوا"

" **اللي يركب يركب أشهب طرز الذهب في لجاموا**

اللي يدور يقول كلمة الحق يدير هراوة في حزاموا"

و الحال أسوأ عند الحديث عن الخيانة , لأنها تؤدي إلى الانحلال الخلقي، فتنعدم المبادئ الأخلاقية و تنعدم الثقة لأن العلاقات بين الأفراد أصبحت يسودها الشك، و يغيب بذلك الصفاء الأخوي و تنكدر القلوب، وتصبح العلاقات بين الأفراد يسودها اللؤم و الخبث و يصل الأمر أحيانا إلى زرع بذرة الانتقام، فتكون النهاية و يصبح الحصاد نارا تأتي على الأخضر و اليابس كقولهم: " **كيت النسا ما تتنسى، و مرقتهم ما تتحسى، و طريقهم ما تتمشى**"، " **اللي جا من قبلة ولد عم الزهرة**"، **كلش تتفكروا و ننساه غير سلام مرتي صغيرة واش هو واش معناه**"، " **كيد النسا كيدين و ضحكاتهم ما يدوموا**".

وأمثال القضاء و القدر تؤدي بجورها دور أو وظيفة أخلاقية فما يردده الفرد الشعبي من أمثال "**اللي مكتوب في الجبين تشوفو العين**" **اللي جاء اجلو يمد رجلو**" ..تهدف إلى الإيمان بالقدر فيكون التصديق الجازم بان الله تعالى هو الميسر و المقدر لكل شئ و أنه لا يقع في ملكه شئ إلا بعلمه و تقديره، وهذا ما أدركته العقلية الشعبية و عبرت عنه.

د- الوظيفة الثقافية:

لقد اكتسب الفرد الاوراسي مجموعة من السلوكيات بسبب احتكاكه مع بيئته و الدليل على ذلك انه نقلها في أمثاله. فانعكست أنماطه السلوكية و عاداته الاجتماعية في أمثال الصداقة و المظاهر الطيبة ، و الأدلة على ذلك قوله :"**اللي مشالك خطوة امشيلو خطوتين**"، "**العيون اللي يحبوك يضحكولك من بعيد**".

إن اهتمام الفرد الشعبي بالصداقة دليل على إدراكه أنها من مستلزمات الحياة لأنها سلوك إنساني له أثره على الفرد و المجتمع ككل, فتؤدي دورها الثقافي داخله.

و الأمثال التي نقلها عن التأثر و التأثير إنما ينقل جانبا من مجموعة السلوكيات التي اكتسبها من خلال تعاملاته اليومية و بالتالي أمكنه تسليط الضوء على الجوانب الواقعية التي تشمل السلوك البشري فأدرك معنى الربح و الخسارة و التأثر و التأثير، و نقله لكل ذلك إنما لنقل مجموعة من القواعد المكتسبة و الدليل في ذلك قوله:" **لو كان درت داري وحدي ما يتآكل ولدي**"،" **اللي عندو حبيب ما يشركوش**"، "**جاورهم تهز طبايعهم**"،" **خالط أمثالك أو ما تعرف غير اللي يعرف قيمة بوك و خالك**".

و تؤدي أمثال الذكاء، الفطنة، و الغباء دورا ثقافيا لأنها تنقل جانبا من الأفكار و التصورات الإنسانية.هذه الأخيرة تنقل مجموعة من الأفعال الإنسانية التي تساعد على التفاعل الإنساني من جهة و اكتساب المهارات و الخبرات من جهة ثانية. و عرض الشعبي ذلك في قالب السخرية و التهكم "**بهلول يعرف باب**

داروا"، " أنا نقولها هاهو صيد و هو يقول هاهي جرتو"، "واش اعطل في صلاة الفاهمين".

وبدورها تؤدي أمثال المعالي و طلبها وظيفة ثقافية باعتبارها تنق مجموعة من السلوكيات أو الممارسات التي يتعلمها الإنسان في حياته اليومية و نقله لها في قالب سخرية و التهكم دليل على تسليط الضوء على مجموعة من الممارسات السلبية كطلب المعالي في غير موضعها **"قالوا واش يخصك بالعريان ،قالوا يخصوا في لخواتم يا مولاي"، "قالوا واش تحب أعمى، قالوا نحب الضوء"، " ما يخص المسكين غير الخاتم و السكين"، " واش خص المشنوق غير ماكلة الحلوى"**

و تساهم أمثال الوراثة بدورها في أداء وظيفة ثقافية داخل المجتمع ، ويهدف الفرد الشعبي من نقله لأمثال الوراثة على جانب مهم وهو الجانب السلوكي للفرد فقوله: " **الخروف الجيد من الربقة يبان"، "خوذ لبنات على لمات أو خوذ الخيول على السادات"** ، دليل على ذلك .

فالوراثة في المفهوم الشعبي تضم الأفكار و العادات و القيم التي تكون في مجموعها تراثا ثقافيا اجتماعيا و هي بذلك تعني قواعد تحكم السلوك الإنساني العام و التي ينطلق منها الفرد لتحديد علاقاته، و تعاملاته الاجتماعية.

أما إذا انتقلنا إلى النظم الاجتماعية و التي جسدها الفرد الشعبي في أمثال الزواج و علاقة الرجل بالمرأة و الولادة أيضا... فهذه النظم ينقل الفرد من خلالها التنظيم الاجتماعي الذي يشتمل على عدد من العادات المتوارثة و المكتسبة أضف إلى ذلك الجوانب المتعددة التي تشمل كل ما تعارف عليه أفراد المجتمع في عاداتهم و معاملاتهم. و من ثم تسليط الضوء على النظام الذي يربط أفراد المجتمع و يدرج كل ذلك ضمن العرف.

فعن الزواج أدرك الفرد الشعبي بفطرته أركان الزواج، فالرضا أول هذه الأركان لأن رضا الطرفين وسيلة لكي تحل العشرة بين الزوجين و يؤكد ذلك قوله **"كل شيء بالسيف إلا الزواج بالكيف"، "المغصوبة ما تركع أو مولاها ما يربح".**

و يضيف عن حسن اختيار الزوجة قوله:" **ما تشوف لزين الطفلة حتى تشوف لفعايل**"، " **ما تشري من خيل مغرس ما تتزوج من بنات العرس**"،" **الزين لا زين لفعايل**".

و إذا انتقلنا إلى الولادة و إنجاب الأولاد كقوله: " **الدار بلا صغار كيما الجنان بلا نوار**"، "**لا سعايا لا ضنايا**" فيركز على هذه المسؤولية لإدراكه لمدى أهميتها.

فما عرضه الحكيم الشعبي من أمثال تؤدي وظيفة ثقافية إنما الغرض منها توضيح أن الأجيال ترث عن بعضها البعض مجموعة من السلوكيات لها علاقة وطيدة بالمجتمع لأنها تنقل سمة من سمات المجتمع الأوراسي: سلوكياته، عاداته، وتقاليده أيضا...

هـ – الوظيفة الاجتماعية:

يتكون المجتمع من مجموعة أسر و أفراد تربط بينهم مجموعة من العلاقات الاجتماعية، و تؤلف بينهم روابط مختلفة، ويتحكم في نمط العلاقات في المجتمع مختلف الظواهر الفردية هذه الأخيرة تعبر عن نمك الأفراد من خلال أسلوب حياتهم فتحدد تبعا لذلك واجباتهم و حقوقهم من خلال علاقتهم بعضهم بالآخر. و هذا لكي يتحقق التكامل بين العلاقات الإنسانية.

و من بين هذه العلاقات نذكر: علاقات التعاون، وصلة الرحم، و الحماة، و الضرة، و الربيب و اليتيم... هذه العلاقات التي خصها الحكيم الشعبي بمجموعة من الأمثال بهدف توضيح دور العلاقات الاجتماعية في البناء الاجتماعي، فأمثال التعاون التي ينقلها كقوله:" **المعاونة تغلب السبع**"، "**زيد السبول على السبول يطيب** "، "**عود واحد ماقدا**"، "**يد وحدة ماتصفقش**"... فهي في حقيقتها تؤدي دورا اجتماعيا داخل المجتمع باعتبار أن الفرد ضعيف مفرده قوي بغيره

و توضح أمثال اليتيم و الربيب جانبا اجتماعيا بحكم طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين الأفراد و عرض الفرد لمعاناته في قوله: " **ما توصي ليتيم**

على بكى والديه"، " ما توصي ليتيم على قبر باباه"، " ما عز ليتيم على العام اللي مات فيه بوه" .إنما التركيز على مختلف الصور السلبية للمعاناة اليومية .

و الحال كذلك عند الحديث عن أمثال صلة الرحم باعتبارها أساسا من أسس قيام العلاقات الاجتماعية المختلفة داخل المجتمع بحكم طبيعته و بنائه الاجتماعي و قوله يؤكد ذلك: " **أنا و خويا على ولد عمي و أنا وولد عمي على لغريب"، "خوك خوك و ابن الناس عدوك"**،...فالروابط الاجتماعية تدعم البناء الاجتماعي للمجتمع فتحفظ كيانه من التفرقة و التشتت.

و نقل كذلك الحكيم الشعبي مختلف الصور السلبية و التي تحكمها مجموعة من القواعد و المعايير و التي تحدد مجموع السلوكيات المتعلقة بأوضاع مختلفة. و نلمس ذلك في أمثال الحماة و الضرة في قوله: " **الكي بالنار أولا عجوز فالدار"، "الغيرة و الحيرة ترد لعجوز صغيرة"،"لمرا حرة حتى وين جات عليها ضرة"، " لا عقل بعد الضرة"**.

أما عن الغربة و التي تمثل جانبا سلبيا في المفهوم الشعبي، لأن الغريب لا أهل له، ويؤكد ذلك في قوله:" **يا باني في غير بلاد لا هي ليه ولا لولاد"، " اقتل لغريب على قلبو لو كان فيه الخير راهوا قعد في بلادو"**.فالإحساس بالانتماء للوطن، و الاعتزاز به، هي قيم تحيا مع الفرد، فينبغي عليه أن يعيش في أرضه و يموت عليها.

أما إذا انتقلنا للحديث عن المسؤولية ، فإنها سلوك ينم عن وعي حضاري له وظيفته الاجتماعية داخل المجتمع. وتعني في المفهوم الشعبي أداء الواجب. لأن أي تقصير يسبب خللا في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تحكم أفراد المجتمع فيما بينهم، و التي تكون أساسا مبنية على قيم و تقاليد وأعراف و سلوكيات متداولة كقوله: " **كل شاة تتعلق من أكراعها"،" كل واحد يمشي على هوى عينو"، " ابني و علي أو روح أوخلي"،" ما يندبلك غير ظفرك أو ما يبكيك غير شفرك"**...فكل ذلك يحقق الحياة الكريمة للفرد.

و عن محاربة المظاهر السلبية في المجتمع نتيجة الحكم و الحكام، وهذا ما أراده الحكيم الشعبي تأكيده من خلال أمثال السلطة و الحكم كقوله:" **الشجرة ما يقطعها إلا عود منها**"، "**البابور كي يكثروا فيه المعاليم يغرق**"...و يسلط الفرد الضوء على جانب آخر و هو الانتهازية و الاستغلال و التي تؤدي إلى ظلم الفرد في عدم حصوله على حقه مع غيره من أفراد مجتمعه، وذلك يؤدي حتما إلى أسوأ ألوان الاستغلال، وهو صراع المبادئ "**اللي تصحب به الحداد مضي بيه منجلك**"، "**اينقي بالوحدة عاد يخرط العرجون**"، "**ما يشكر السوق غير اللي ربح فيه**"، "**الشاري سلطان و البايع خديمو**".

أما إذا انتقلنا إلى جانب آخر أو ما يمكن تسميته بالعيوب الاجتماعية، التي لا يخلو منها مجتمع بأي حال، لذلك فترديد الفرد لأمثال تشمل ذلك إنما للتركيز على جانب من الحياة الاجتماعية للفرد، وما تتسم به هو طريقة صياغتها و هذا لتكون وسيلة تكشف عن الحقيقة عن طريق تقديم النصيحة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نذكر : " **ما يحكم لحسيفة غير لوصيفة**"، " **الخبزة اللي شاعت علي ناكلها و نبرق عيني**"، " **جرب و طاح في دشيشة**"، " **سعد الفحلات يدوه الخاييات**"، " **اللي يلاقيك عند السكة يلاقيك عند المحراث**"، "**الزينة سعدها في اللحم و الشينة سعدها في السما**"، " **شوك القليل يظهر فالليل**"،"**هارب من القطرة جا تحت الميزاب**".

و الغرض من كل ذلك إنما التأكيد على الجانب الاجتماعي في قيام العلاقات بين الأفراد. ومن ثم التركيز على البناء الاجتماعي للمجتمع، من خلال تحديد القواعد و المعايير التي ينبغي أن تسود داخله، فيتم الحفاظ على الأدوار التي يشغلها أعضائه في علاقتهم بعضهم بالآخر.

- بعد عرضنا لأهم الوظائف التي يؤديها المثل الشعبي في منطقة الأوراس فإننا نصل إلى جملة من الملاحظات نذكر منها:

لا تتصف جميع الأمثال المتداولة على طابع الشمولية، إذ توجد أمثال أملتها بعض الظروف، فأصبحت تتصف بذلك ذات طابع محلي. و بذلك فهي لا تحمل أي تأثير على سلوكيات الأفراد، بل قد تتعارض مع بعض

المضامين التي تشمل قواعد السلوك العام ، و بالتالي تفقد وظيفتها أو دورها داخل المجتمع. فتبقى بذلك مجرد ألفاظ يرددها الأفراد، و من ذلك نذكر مثلا: " **كحل الراس اكويه لا داويه**"، فنقل الأفراد لهذا المثل الذي كان يردد في فترة الاحتلال الفرنسي، و هو يحمل في معناه الاحتقار و الذل للعرب.

- و ما يلفت النظر في الأمثال الشعبية المتداولة إن بعض الأمثال تكون متناقضة مع بعضها البعض و يفسر **عبد العزيز الأهواني** هذا التناقض بقوله:" **وإنما جاء التناقض أن النفس الإنسانية ذاتها تحمل في طياتها هذا التناقض و تتجاذبها العوامل النفسية باختلاف الظروف و فضلا عن ذلك فإن المجتمع بطبيعة انقسامه إلى طبقات و طوائف و اختلاف في المهن، وفي المستويات العقلية و المعيشية جعلته و إن التقت نفسيات أهله في نواح من جهات النظر تختلف في نواح أخرى**"[10] لذلك نجد أمثال يناقض بعضها الآخر فمثلا تقول العامة: " **اللي خلق ما يضيع**"، "و من جهة أخرى تقول: " **أجري أ صغري على كبري و اجري يا كبري على قبري**".
- يأتي المثل في ختام التجربة، وهذا ما يؤكد ما وصلت إليه **نبيلة إبراهيم** عندما قالت:" **و إنما كانت تجارب الإنسان تشغله إلى حد كبير فإن الإنسان لا يعيش في عالمه الكبير بقدر ما يعيش في عوالمه الصغيرة أي في تجاربه، وكلما عاش الإنسان في هذه التجارب و أحس بوقعها على نفسه كان أشد ميلا للتعبير عنها و عن نتائجها، فقد يحدث أن يفشل في أمر ما كان يتوقع نجاحه فيه فإذا شاء هذا الشخص أن يصف سوء مصيره و عجزه لشخص آخر ليدرك موقفه تماما فإنه يعبر عن ذلك بكلمة – حظ- فإذا حدث أن وصل شخص إلى نتيجة موفقة في مسألة ما ، لم تخطر له على بال يعبر عن ذلك كذلك، و إن يكن بنغمة أخرى حظ، و هنا نلاحظ أن الشخص لم يحكم حكما نقديا على موقفه بحيث يقول على سبيل المثال:" لو أني تصرفت تصرفا آخر لحدث كذا و كذا و لكنه يبتعد**

عن جوهر تجربته كما يبتعد عن مسلكه إزاء هذه التجربة ولا يعبر إلا عن نتيجتها ووقعها على نفسه وربما قربنا هذا المثال من الموقف الذي يعيشه هذا الإنسان حينما ينطق لسانه بالمثل.ومن المحتمل أن يحل مثل شعبي محل كلمة – حظ – و عندها يكون التعبير عن نتيجة التجربة أكثر وضوحا[11].

ومثال ذلك ما يردد من أمثال شعبية حول الأنواء و الفلاحة.

- تؤدي الأمثال دورا أو وظيفة بحسب البيئة التي يعايشها الفرد و يتفاعل مع مختلف عناصرها و بالتالي فالأمثال تنقل واقعا معاشا.
- الأمثال مصدر تشريع العادات الشعبية التي تتماشى حسب احتياجات الفرد سواء أكانت أخلاقية أو اجتماعية أو غيرها.و عليه فالأمثال تشكل نصوصا صاغها الحكيم الشعبي لوضع القوانين التي تنظم العلاقات الإنسانية المختلفة و من ذلك قوله:" **كل تأخيرة فيها خيرة**"، "**شاو النهار للمهار، وعقاب النهار للقرح**"...
- المثل أسلوب شعبي لتقويم السلوك باعتباره انعكاس طبيعي لحياة الإنسان، و بكل ما تحمله الحياة من ثنائيات، فالحكيم الشعبي في نقله لأمثال الخير و الشر...إنما لدفع الإنسان نحو وجهة الخير و الدليل على ذلك قوله: " **دير الخير و راك تلقاه قدامك** "،" **فاعل الشر مقبوض أو فاعل الخير سالك**"،" **مول الخير دواه الخير**." .
- و إذا كنا أشرنا إلى الدور الذي يقوم به المثل في الجانب الأدبي فإنه من الضروري أن نشير إلى الدور الاجتماعي لا سيما و انه يكاد يكون ابرز الأدوار التي يلعبها المثل في حياة الناس خاصة و انه يعيش مع الفرد مرات عديدة في يومه و يتسرب إلى دقائق حياته و يتخلل جزئياتها، فالأمثال " **تصلح لأن تدرس دراسة اجتماعية لما احتوته من التقاليد الشعبية و القيم المحلية فضلا عما جاء في تضاعيفها من الإشارة إلى مختلف الصناعات و المهن و الأحوال المعيشية**"[12] .

- احتوى المضمون الفكري للمثل على جميع مبادئ الأخلاق كالعفة و الفضيلة و الصدق و الكرم و حسن الجوار و الشجاعة وغيرها مما يمكن أن تحمل في أطوائها مثلا عليا سامية يسعى إليها الإنسان و يرى فيها عناصر تحقيق إنسانيته في مواجهة ظروف الزمن. كل ذلك يدل على أن المثل انعكاس طبيعي لحياة الإنسان بخيرها و شرها حلوها و مرها، و المثل و هو يعكس هذه الحياة لا يرددها مثل الببغاء دونما هدف واضح أو سياسة مقصودة و لكنه يهدف أولا من استعراض الخير و الشر إلى دفع الإنسان للاتجاه إلى الخير و يحذره من الالتجاء إلى الشر مستخدما عدة وسائل منها التهكم و السخرية و الكشف و التعرية و الدهشة و الاستنكار كما أنه و هو يدفع إلى الخير يتوسل النصيحة المباشرة و غير المباشرة، ويعرض النماذج التي تمثل مبادئ سامية كنموذج للتقليد و المحاكاة و على ذلك يمكننا القول بان المثل أسلوب شعبي للنقد و التقويم كما أنه مرآة تعكس آمال الشعب و أفكاره و تجاربه.

نختم بقول"**توريانو**" **أننا نستطيع أن نكتشف بسهولة طبيعة الشعب و ذكائه عن طريق الأمثال فهذه الأمثال تمثل فلسفة الجماهير**" [13]

لقد آن الأوان لكي يلتفت العلماء و الباحثون إلى الطبقات الشعبية باعتبارها العامل الحقيقي في توجيه دفة التاريخ، وهذه الخطوة الجديدة في مجال الدراسات الإنسانية تفرضها ضرورات إنسانية و اجتماعية و علمية....

❖ **هوامش البحث**

(1) إبراهيم أحمد شعلان، **الشعب المصري في أمثاله العامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1391هـ، 1972م، ص39.

(2) نبيلة إبراهيم، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار النهضة للطباعة و النشر، القاهرة، مكتبة الفكر، د ت، ص 147.

(3) المرجع نفسه،ص 140

(4) الكسندر هجرتي كراب، **علم الفلكلور** ، ترجمة: رشدي صالح، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1967م، ص 236.

محمد المرزوقي، **الأدب الشعبي في تونس**، الدار التونسية، تونس، 1967م، ص33 .

(5) نبيلة إبراهيم، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، ص 143.

(6) المرجع نفسه، ص 143.

(7) إبراهيم أحمد شعلان، مرجع سبق ذكره،ص ص46.47.

(8) نبيلة إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص 144.

(9) أحمد بن النعمان ، **سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م، ص 144.

و / إبراهيم أحمد شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، ص 44.

(10) نبيلة إبراهيم، مرجع سبق ذكره ، ص ص 142- 143.

(11) إبراهيم أحمد شعلان ، مرجع سبق ذكره، ص44.45

(12) جلال الحنفي، الأمثال البغدادية، ج1، مطبعة بغداد ، 1962م، ص 13.

(13) إبراهيم أحمد شعلان ، مرجع سبق ذكره ، ص3.